دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

المقاومة الريفية بقيادة أحمد الريسوني
من خلال الصحافة الفرنسية

د. عبد السلام بوطافي
حاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّص

هذه هي الدراسة الثانية التي خصصناها للحديث عن المقاومة ضد الاحتلال الإسباني بشمال المغرب من خلال الصحافة الفرنسية، والتي سنتناول فيها المقاومة الريفية بقيادة شخصية أخرى ظهرت على مسرح أحداثها. سنلامس كيف طرحت ولامست الصحافة الفرنسية الأبعاد الذاتية والسياسية والاجتماعية والنفسية للريسوني، وهي تتناول سيرته، وكيف بررت ازدواجيته وزئبقيته بين معاداة الاستعمار، والارتماء في أحضانه، وما الذي جعلها ترى فيه نموذج السياسي المغربي بامتياز. هذا النموذج الذي يمكن أن نستنتج ضمنيًا صفاته من خلال ما كتبت عنه أنه: مخادع، شرس، عنيف، شره للمال والسلطة، وفي هذا يستجيب لغرائزه الطبيعية، ويستسلم لحلول اليأس، وينعن للقوي الذي لا قبل له بمواجهته، تحت تأثير عقله. عقلاني وغريزي، ذلك هو الريسوني خاصة، والسياسي المغربي عامة. والملاحظ أن الصحافة الفرنسية قد وجدت ضالتها في الريسوني لتفجر مكبوتها الاستشراقي، فكتبت عنه، وخطابها ينوس بين الواقعي/ الحدثي والاستشراقي/ التحييلي/ النمطي. ورغم كل هذا فهي تظل، ذات أهمية خاصة، لأنها كانت تكتب في الخط الموازي للحدث، بعيدًا عن التنظير الذي لا يزدهر إلا بعد نهايته "أي الحدث"، وإن كان كل ذلك قد تم بنفحة استعمارية واضحة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ يوليو ٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الاحتلال الإسباني؛ الصحافة الفرنسية؛ المقاومة الريفية؛ المقاومة المغربية؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2022.299578

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام بوطافي. "المقاومة الريفية بقيادة أحمد الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٢٩ – ١٤٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: abdesselamb5@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَورية كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

يعتبر أحمد الريسوني أحد أعمدة المقاومة المغربية بشمال المغرب، الذي صنع مجده في جو مفعم بالتحولات العاصفة محليًا ودوليًا، واستطاع في سياق الأحداث الصاخبة، التي كان يمر بها العالم ومعه المغرب، أن يستشرف المستقبل، فيتحول من مجرد إنسان بسيط مشهور بالورع والتقوى، بين عشيرته، ينحدر من سلالة النبي محمد، إلى لص وقاطع طريق، تحت ضغط الواقع وجبروته، بعد تعرض متاعه القليل للنهب ووالدته للقتل، إلى سيد الريف المطلق، الذي أخذ على نفسه الوقوف في وجه الهجمة الاستعمارية الزاحفة على المغرب. وكان من الطبيعي أن تثير أفعاله انتباه الصحافة الفرنسية اللاهثة وراء تسارع الأحداث بالشمال المغربي، تغطية للخبر، وخدمة لمشروع حكومتها الفرنسية الاستعماري. فكيف أرخت للأحداث التي كان يمور بها الشمال؟ وكان الريسوني طرفا فاعلا فيها. وكيف تفاعلت مع شخصيته المتقلبة؟ التي دفعتها إلى اعتباره -في توصيف يتأرجح بين المدح والقدح- نموذج السياسي المغربي بامتياز؟ وكيف رثت مصيره البائس؟

أولاً: سيرة الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية

لم تتعرض الصحافة الفرنسية لسيرة الريسوني، على كثرة ما تناولت من أخباره، إلا مع نشرها لخبر رحيله، وما أثاره من مصاعب لإسبانيا، خاصةً وأنه تزامن مع حدوث انقلاب سياسي بإسبانيا كان السبب الأول فيه ما حل بالقوات الإسبانية من هزائم على يد المقاومة الريفية، كما تزامن مع خلو منصب خليفة السلطان، وما طرحه هذا الأخير من صعوبة في إيجاد خليفة له يكون محط رضا كل الأطراف الفاعلة في الريف وعلى رأسها السلطان والإسبان[1]. اعتبرت الصحافة الفرنسية رحيل الريسوني حدثا مفاجئا[2]، واتخذت منه مناسبة لتعريف قرائها به، وسبر أغوار هذه الشخصية الفاتنة، التي مارست إغراءها على المؤرخين والأدباء على حد سواء، فقد كان مثالا للنبيل المتوحش، الذي انطوت جوانحه على عاطفة عذبة رقراقة رغم عنفه وقسوته. وقبل أن يصبح أحد أعمدة السياسة الإسبانية بالريف، كان قد بدأ مشوار حياته ثائرًا على الظلم (أيًا كان مصدره: المخزن أو الاحتلال)، ليتحول إلى قاطع طريق، ثم أضحت الصفتان صفة واحدة ذات كيان واحد لا يقبل التجزيء والانفصال.

وبلغة استشراقية واضحة تعرضت الصحافة الفرنسية لأهم المحطات التي ساهمت في بناء شخصيته، فأشارت إلى أنه قد ألقي عليه القبض على عهد الحسن الأول، الذي رمى به في غيابات سجن موكادور الرهيب مدة سنوات طوال. وحين خرج من السجن خرج أشد ما يكون متعطشا للحرية في أبهى تجلياتها. وفي طريقه لتحقيق هذه الحرية، لم يكن جبارًا متعطشًا للدماء، كما قد يتوهم البعض، فقد كانت تنطوي جوانحه على روح عذبة، لم تزدها الرزايا والإخفاقات، التي ابتلي بها إلا رهافة. ونلمس ذلك من خلال عبارات العرفان بالجميل، التي تدفقت بها ألسنة سجنائه من الأجانب، الذين أشادوا بأخلاقه الفروسية.

وعلى ذكر سجنائه ذكرت الصحافة الفرنسية بأهم العمليات التي كانت وراء انتشار اسمه خارج حدود المغرب، حيث أصبح محط اهتمام الرأي العام الأوروبي، الذي انشغل بعمليات السطو والاختطاف التي قادها بطنجة ونواحيها، بدءا باختطافه لجزائريين رعايا فرنسا، مما دفع بهذه الأخيرة إلى إرسال فرقة عسكرية إلى طنجة. بعدها قام الريسوني باختطاف الإنجليزي هاريس مراسل (Times) من منزله بطنجة، ولم يطلق سراحه إلا بعد حصوله على فدية كبيرة وإطلاق جميع المعتقلين من أتباعه[3]. وبعد نجاح العملية السابقة، قام الريسوني باختطاف الثري الأمريكي بيرديكاريس رفقة نجله فالري (M.Varley)[4] ليلا من قلب فيلاته بطنجة[5]. ومن المعروف **أن** الريسوني لم يطلق سراح بيرديكاريس إلا بعد تسلمه لفدية بلغت ٣٥٠,٠٠٠ فرنك، إضافة إلى إطلاق سراح كل أتباعه، الذين رمي بهم في السجون على فترات زمنية متباينة. ومن سخرية الأقدار، وجدت الولايات المتحدة نفسها مجبرة إضافة إلى دفع الغرامة على تمتيعه وعائلته بالحماية الإنجليزية والأمريكية.

وبذلك أصبح الريسوني واثقًا من قدراته لما أحرزه من نجاح، فوسع من عملياته بطنجة ونواحيها. ومعها لم يعد السلطان المولى عبد العزيز، العاجز عن مجابهته عسكريا يطيق صبرًا على أفعاله، فوجه إليه المؤطر العسكري للقوات الشريفية ماكلين في سفارة من أجل التفاوض معه لوضع حد لعملياته، فما كان من الريسوني إلا أن قام باعتقال المؤطر الإنجليزي ورميه في السجن في انتظار افتدائه من طرف المخزن. ومع اعتلاء المولى عبد الحفيظ سدة الحكم، لعب الريسوني ورقة الخضوع بدل التمرد، فأذعن للسلطة الجديدة وأصبح قايدا للغرب (غرب الريف)، ولم يكن خضوعه سوى تبعية إسمية، إذ ظل يتمتع باستقلال تام، ويمارس سلطات واسعة غير محدودة. وكذلك

فعل مع إسبانيا حين تغلغلت داخل الريف فظلت علاقته بها تتأرجح بين التبعية والاستقلال (بين التحالف والتمرد). كما استفاد كذلك من الدعم الألماني، بوساطة إسبانية. وبذلك يكون الريسوني قد أتقن اللعب على تناقضات مصالح الدول الأوروبية، ومنافساتها الدبلوماسية، التي اتخذت طابعًا وصف حينها بالصبياني.

شكلت هذه التجربة الحياتية الكبرى التي استعرضتها الصحافة الفرنسية حول الريسوني لبنة أساسية في هيكل العلاقات الذي أقامه مع محيطه من الخصوم والمنافسين، فقد أفادته كثيرا في تعامله مع إسبانيا، عديمة الخبرة، وقليلة الحيلة، فوقف منها موقف الأستاذ من تلميذه. تلك الأستاذية، التي مارسها على عهدي سيلفيستري وبرنكر، حيث تمكن بسهولة من القضاء على كل الشيوخ صنائع إسبانيا لمنازعته النفوذ بالريف الغربي. وأدى فشل سياسة الصنائع والدمى إلى خروج برنكر إلى العلن والدخول مع الريسوني في مواجهة عنيفة، انتهت بتقليص نفوذ الريسوني، فلم يعد (نفوذه) يتجاوز بضع كيلومترات مربعة. وبعد رحيل برنكر وتعويضه ببركيت (Burguette) استعاد الريسوني نفوذه القديم، بفضل سطوة الفتنة التي مارسها على الجنرال الإسباني، الذي افتتن بعظمة الشريف، الذي أضحى ورقة ضرورية لا يمكن تجاهلها لفرض السلم بالمنطقة.

وبخصوص هذا السلم، الذي انخرط فيه الريسوني طواعية، ونرجح انتصار الريسوني لهذه القيمة الإنسانية، أن يكون بدافع من التقدم في السن، وبفعل تجربته الطويلة الحافلة التي عرك فيها الحياة، وجعلته يحتك عن قرب بالعالم المعاصر، ويبدي إعجابه به، ويعبر صادقا عن الرغبة في الانخراط فيه، وركوب أمواجه الهادرة، ويعلن أن انتماءه الأول والأخير لن يكون إلا للغد الحتمي، بما يحمل في طياته من مصير محتوم. وفي هذا السياق عمل، كما تنبهت الصحافة الفرنسية، على تلقين أبنائه تعليمًا عصريًا، كفيل بمنحهم وسائل جديدة لتحقيق التحرر والانعتاق من سيطرة الآخر[٦]. ومن خلال ما دبجته الصحافة الفرنسية عن الريسوني يتبين لنا أنه لم يكن مجرد مغامر قاطع طريق محدود الأفق، وابن بيئته المحلية الضيقة، بل كان كائنا كوسموبوليتيا/ عالميًا ومثقفًا، والدليل في ذلك أنه كان على دراية كبيرة بمجريات الحياة السياسية بإسبانيا، فكان يتابع الأحداث عن كثب، فيكفي الإشارة إلى أنه علم بحدوث الانقلاب الإسباني في وقته، فسارع بتوجيه تلغرامين إلى الديكتاتور ريفيرا، الذي بتأثير منهما سرعان ما غير من موقفه المعادي للريسوني، وأصبح يرى فيه حليف المستقبل.

إن السرد التفصيلي المخصص من طرف الصحافة الفرنسية لسيرة الريسوني، الذي اعتبرته نموذج السياسي المغربي بامتياز، يجعلنا نقول بأن الرجل لم يكن بالخائن المرتمي في أحضان المستعمر، بل داهية عرف كيف يلعب على تناقضات مصالح الدول الغربية، ساعده في ذلك إطلاعه الحي والمباشر على الأحداث السياسية بإسبانيا وغيرها، من خلال ما كان يترجم له من جرائدها. كما كان في نفس الوقت على دراية تامة بقوة الأعداء، وبالمصير المحتوم، الذي كان ينتظر الريف، لذلك استسلم لحلول اليأس أحيانا كثيرة. والدليل على ما ذهبنا إليه سابقًا هو ما رسمته الصحافة الفرنسية له كسياسي زئبقي، متلون، لا يقر على قرار واحد في هذه الجملة، التي يمكن أن نعتبرها القول الفصل في طبيعة العلاقة التي ربطته بإسبانيا "...الريسوني الحليف والخصم في آن واحد، الذي كان يتحكم بمنطقة الريف الغربي، فكان ينشر فيها الأمن والانضباط، أو الاضطراب والقلاقل، تماشيا مع طبيعة علاقته مع إسبانيا، تلك العلاقة التي تأرجحت بين الهدنة والتوتر"[٧]. والواقع أن الصحافة الفرنسية لم تنته إلى هذه النتيجة إلا بعد تغطيتها لأحداث ووقائع العلاقة بين الطرفين مدة من الزمن.

بقي في الأخير أن نشير إلى أن هذه السيرة التي وضعتها الصحافة الفرنسية للريسوني جاءت على مراحل، وذلك كلما أعلنت عن موته معتبرة إياه كأهم حدث تناولته أعمدتها، وتم ذلك على ثلاث مراحل إذ سرعان ما كان يتبين لها زيف الخبر، وأنه لا يتعدى الإشاعة، واستمرت تكذب نفسها ما إن يتبين لها أن الرجل لا يزال على قيد الحياة، واستمرت على ذلك إلى أن جاءت الثالثة، وكما يقال الثالثة ثابتة، وهذا ما سنتطرق إليه في النقطة الأخيرة من المقال.

ثانيًا: الريسوني بين البطولة والخيانة أو بين المقارعة والممالأة من خلال الصحافة الفرنسية

لم تتطرق الصحافة الفرنسية لأحمد الريسوني إلا من خلال عرضها لطبيعة العلاقة بينه وبين إسبانيا، حيث ارتبط في البداية معها بعلاقات (طيبة)، وساعدها على احتلال القصر الكبير، فوعدته بجعله خليفة على منطقة النفوذ الإسباني[٨]. كما استعملته أداة لترهيب القبائل، ووأد الانتفاضات التي كانت تندلع ضدها نواحي القصر الكبير، والعرائش، وأصيلا[٩]. ثم عرجت

على نتوءاتها من خلال تحليلها لتصريحات كنليخاس التي أصر فيها على تكذيب خبر احتلال أصيلا من لدن القوات الإسبانية، وقد تناولت الخبر بكثير من الدهشة التي لم تخلو من السخرية بطرحها لسؤال: ألا تعتبر مدينة أصيلا محتلة بحكم الواقع، مادامت القوات الإسبانية تتواجد على أبوابها[١٠]. والواقع أن كنليخاس كان يتلاعب بالكلمات، ويقدم تصريحات مراوغة، ويزيف الحقيقة (احتلال المدينة) التي يجليها دخول خمسين جنديًا من طابور العرائش إلى أصيلا، واستقراره بالقصبة. الأمر الذي لم يكن ليخفى عن الصحافة الفرنسية، فقد تساءلت جريدة "لادبيش ماروكين" عن مغزى السر الثاوي وراء هذا الغموض الذي ينشره كنليخاس، حول حقيقة احتلال مدينة أصيلا، ما دام هذا الأمر لا يزعج أحدًا سوى الريسوني، ولا يثير أدنى اهتمام في أوساط الرأي العام والدبلوماسي بأوروبا.

عززت الصحافة الفرنسية استنتاجاتها بشأن احتلال أصيلاً بما ورد في مراسلات مراسلها من أخبار عن أحداث يومي ١٥ و١٧ غشت، حيث تحدث عن دخول فرقتين من مشاة البحرية، إضافة إلى تواجد ١٥٠ عنصر من عناصر البوليس[١١]. وفي ١٨ غشت كانت القوات الإسبانية على أتم استعداد لدخول المدينة عنوة، في حالة عدم تنازل الريسوني عن الحكم بها[١٢]، إلا أن الريسوني رضخ للأمر الواقع، وقام بتقديم مفاتيح المدينة لقائد القوات الإسبانية، وهكذا أضحت المدينة مشرعة الأبواب.

وبذلك تكون الصحافة الفرنسية في أول تأريخ لها لأحمد الريسوني، تصطدم به وهو يدخل التاريخ من أضيق أبوابه، من باب الخضوع والخنوع، والاستسلام للأمر الواقع. لكن يبقى السؤال: هل سيستمر الريسوني على طريق الانبطاح والوهن؟ أم هل سينتفض على هذا الواقع المر، وينحاز لخيار الثورة مفضلا إياه على حياة الذل والمسكنة، رغم ما توفره من ترف ودعة. ذلك ما ستجيب عنه الصحافة الفرنسية وهي تلتقط دقائق وقائع أيام الريف المسربلة بالدم والتار والدخان[١٣].

الواقع أن علاقة الريسوني بالاحتلال تطرح أكثر من علامة استفهام، فهو وإن بدا متواطئا معه، أو بعبارة أخف وقعا متعاونا، فإن هذا لم يكن إلا تحت ضغط الواقع وإكراهاته، وأنه لم يكن يسلك سبيل ودرب، ما نراه اليوم خيانة، إلا بعد أن يكون قد استنفذ جميع خيارات المناورة، التي برع في إتقان أبجدياتها، والدليل في أن خضوعه لم يكن يعني الخضوع المطلق لإرادتها، بل كان خضوع إكراه واضطرار، فقد احتج بشدة ضد رغبة إسبانيا في منح أزقة وشوارع مدينة أصيلا أسماء[١٤] (إسبانية) ووضع علامات التشوير بها. إذن توترت العلاقة بين الطرفين، وأضحت منذورة للقطيعة، خاصة مع احتلال إسبانيا لأصيلا، وإجبار الريسوني على التنازل عن حكمها، وتسليم مفاتيحها.

ومن خلال تحليل الصحافة الفرنسية لآليات هذه العلاقة الملتبسة بين الطرفين، يتبين لنا أن الريسوني لم يكن يرضى أن يكون مجرد قطعة من قطع الشطرنج تحركها إسبانيا كيف شاءت وأنى شاءت، فهو سيد الريف، الذي خبر المحن والأهوال، وتسلق سلم المجد، بعد أن صهرته التجارب، ووضعته وجها لوجه مع قوى عظمى، فخرج منها غانمًا سالمًا، متوجًا على عرش الريف دون منازع. ويا له من درب طويل ذاك الذي قادته فيه الأقدار، فمن البراءة والضياع، من أقبية سجن موكادور الرطب المعتم، إلى ذروة المجد بجلوسه سيدا مطلقا على عرش الريف. أما إسبانيا فلم تعد ترى في هذا الشخص المعتد بنفسه، في هذا الوقت بالذات الذي انعكست أحداثه ووقائعه على مرآة الصحافة الفرنسية بالمغرب، سوى عبئ ثقيل، فهو لم يعد عامل تهدئة، بل على العكس من ذلك فقد ساهمت سياسته في إثارة القلاقل داخل القبائل الجبلية[١٥]. وكانت هذه السياسة موضوع تداول ونقاش بين الكولونيل سيلفيستري وقنصل إسبانيا بالعرائش زوكاستي (M. Zugasti) والريسوني[١٦]، كما بحث الطرفان موضوع الإجراءات الواجب اتخاذها لدرء قلاقل جديدة قد تشهدها المنطقة.

تضع الصحافة الفرنسية على عاتق هذه القلاقل توتر العلاقة بين إسبانيا والريسوني، وازدادت شدة التوتر مع اتخاذ إسبانيا لها ذريعة ومبررًا لاحتلال أصيلاً، حيث أخذ القائد العسكري أوفيلا (Ovila) في الاستعداد لاحتلال المدينة بتنظيم حملة من المشاة[١٧]، مهددًا باحتلالها في حالة استمرار القلاقل التي كانت وراءها السياسة الجبائية للريسوني. وقد وجهت إسبانيا بالفعل حملة مكونة من مئتي رجل من المشاة البحرية وجزء من الخيالة نحو أصيلا[١٨]، على غير رغبة الريسوني، الذي وجد نفسه مرغما على الرضوخ للأمر الواقع[١٩]، غير أن هذا الإذعان لم يكن سوى إذعان مؤقت، فما إن استرجع الريسوني أنفاسه، حتى بادر إلى المواجهة مع المحتل، ليدشن صفحة جديدة من صفحات الريف المقاوم.

ثالثًا: الريسوني وإسبانيا وجهًا لوجه من خلال الصحافة الفرنسية

لم تهتم الصحافة الفرنسية بأحداث المنطقة الشمالية الواقعة تحت النفوذ الإسباني، طيلة سنوات الحرب العالمية الأولى، انشغلت عنها بالحرب الدائرة رحاها بأوروبا، ولم تعد

لمتابعة وقائع المقاومة بالريف إلا بعد أن أصبحت أحداثها تلقي بتداعياتها على الوضع داخل منطقة النفوذ الفرنسي[٢٠]، وبالرجوع إلى تلك الصحافة نسجل أنها تغاضت عنها تماما و لم تحفل بها إلا حينما اشتدت المواجهة بين الريسوني والاحتلال الإسباني، وبلغت ذروتها التي تزامنت مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وعبرت عن ذلك الحملة التي وجهها سيلفيستري (Sylvestre) في ٢٧ شتنبر ١٩١٩ [٢١]، حيث تمكنت القوات الإسبانية المتمركزة بتطوان من احتلال موقع مرتفع كونيكو (Mont Conico)، الذي يوجد جنوب الطريق المؤدية إلى الفنيدق[٢٢]، لهذا شكل مرتفع كونيكو موقعا استراتيجيا بإطلالته على الطريق (بين تطوان والفنيدق)، وحمايته لها من الغارات القادمة من الجنوب، وقد كلف احتلال هذا الموقع ثماني عشرة ضحية بين قتيل وجريح. في نفس اليوم؛ وجهت إسبانيا فرقة أخرى في اتجاه الفنيدق، التي من المرجح، استنادا على الصحافة الإسبانية، أنها هي التي احتلت مرتفع الحرشة (Mont Harcha).

ولأن الصحافة الفرنسية كانت تتخذ من الصحافة الإسبانية مصدرا لها في تغطية أحداث الريف فقد عبرت عن تأففها من شح المعلومات التي توفرها هذه الأخيرة فيما يتعلق بما يجري من أحداث على أرض مسرح نفوذ إسبانيا، وهو ما عكسته الشكوى التي عبرت عنها جريدة لافيجي ماروكين من عدم تغطية الصحافة الإسبانية؛ بشكل كاف، لتحركات القوات التي وجهتها إسبانيا في اتجاه الغرب والشرق (ضمن نفس الحملة، وفي نفس اليوم) على هدف الالتقاء بالفنيدق. واستنادا على مصادر خاصة (في غياب المعطيات الإسبانية) أشارت الجريدة إلى تمكن الريفيين من إيقاف الزحف الإسباني شمالاً، ومهاجمة موقع ركيا (Ragaïa)، الذي يوجد بالقرب من واد راس.

وبالرجوع إلى الصحافة الفرنسية يتبين لنا أن ما أثار قلق إسبانيا في مواجهتها للريسوني تبنيه لتكتيكات عسكرية عمادها مهاجمة مؤخرة القوات الإسبانية بدل المجابهة المباشرة[٢٣]. وبفضل هذه الخطة تمكن الريسوني من أسر مؤخرة القوات التي كانت تحت قيادة الليوتنو طابيا ريانو (Tapia Ruano)، الذي وقع بدوره أسيرا، كما اعتمد كذلك على خطة عسكرية استهدفت نشر الفوضى داخل الجيش الإسباني، وتفتيت وحدته بتحريض الأهالي العاملين بالجيش الإسباني على التمرد، وكانت هذه الخطة تأتي أكلها أحيانا حيث شهدت قوات الاحتلال المتمركزة بمليلية تمردا لفرقة المية[٢٤]، المتكونة من مئة أهلي.

تنبهت الصحافة الفرنسية إلى أن هذا التكتيك العسكري الذي اعتمده الريسوني لم يكن حكرا عليه وحده، بل تبناه جميع المغاربة تقريبا في مواجهتهم للخصوم، والذي كان فيه يتحاشى المواجهات الحاسمة، التي كانت تسعى إليها القوات الإسبانية. هذه الخطة الإسبانية (المواجهة الشاملة/ العامة والحاسمة) عمد الريسوني إلى تدميرها بتبني الحرب المرحلية والمباغتة[٢٥]، فكان تارة يهاجم مؤخرة القوات الإسبانية، وتارة أخرى يصب غضبه على القبائل الخاضعة للاحتلال مع العمل على قطع وسائل الاتصال والمواصلات.

ومن خلال الصحافة الفرنسية ندرك أن طبيعة المواجهات بين إسبانيا والريسوني وتكتيكات هذا الأخير، فرضت على الاحتلال الإسباني التحلي بكثير من الصبر والجلد، ومعها أدركت أن الإخضاع التام للمنطقة لازال بعيد المنال، وأن عليها الاعتماد على نفسها إن هي أرادت الاحتفاظ بالمواقع التي احتلتها خاصة تلك التي تمكن الجنرال سيلفيستري من احتلالها بالمناطق المتواجدة خلف الفنيدق[٢٦].

نلمس هذا التكتيك العسكري الذي اعتمده الريسوني، والذي أنهك قوات الاحتلال الإسباني أيضا في تراجعه، إثر الزحف الإسباني على مواقعه، بلجوئه إلى قبيلة بني فحص (Beni Fas)، على بعد ٨٦ كيلومتر من الفنيدق[٢٧]. بعدها انتقل إلى تازورت، حيث أخذ منها يحث اجبالة على الاكتفاء بالدفاع، ورد الهجوم إلى وقت الانتهاء من زراعة الذرة (البيضاء)/الدخن (Sorgho)، وعدم المبادرة بالهجوم إلا بعد الانتهاء من الأشغال الفلاحية[٢٨]، وهذه ظاهرة عامة شهدها جل التراب المغربي، ففي فصول الاشتغال بفلاحة الأرض من زراعة وحصاد، كانت المقاومة المغربية تشهد فتورا في حدتها وتمددها، وكان المستعمر على وعي بذلك، وهو ما عكسته صحافته، وبالإضافة إلى الأشغال الفلاحية، كانت هناك عوامل أخرى، ساهمت في تراجع المقاومة وخفوت جذوتها كالصراعات البينية، التي كانت وراء وضع حد لمسيرة الريسوني.

رابعًا: إشارات نهاية أحمد الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية

تزامنت الإشارات الأولى، التي التقطتها الصحافة الفرنسية، لبداية أفول نجم أحمد الريسوني مع ما أصبح يشكله خصمه في بسط النفوذ على الريف: محمد بن عبد الكريم من خطر على الوجود الإسباني شمال المغرب، وما تسببت فيه معركة أنوال من تصدع في الجبهة السياسية الإسبانية، فقد أدى الإخفاق المتواصل لإسبانيا في المغرب، الذي بلغ ذروته مع هزيمتها في

أنوال، إلى خلق شرخ في صفوف وزراء الحكومة الإسبانية[٢٩]، وبلغ اختلاف الرأي فيما يتعلق بالمغرب بين الوزراء وموروا "رئيس الوزراء الإسباني" حد التناقض البين[٣٠]، مما دفع برئيس الوزراء الإسباني، بمطالبة وزرائه العودة إلى رؤساء أحزابهم قصد التشاور للخروج بموقف جلي وصريح ونهائي حول المغرب، قبل عرض البرنامج المتعلق بالمغرب على الكورتيس، ومناقشته.

تنبهت الحكومة الإسبانية إلى إحدى أخطائها بالمغرب، فسارعت إلى وقف عملياتها العسكرية بالريف، بهدف إنجاح المفاوضات المتعثرة، التي كانت تباشرها مع محمد بن عبد الكريم الخطابي لإطلاق سراح أسراها.

لم يكن هذا هو المعطى الوحيد، الذي دفع برئيس الحكومة إلى السعي للحصول على رأي الأحزاب، بل كذلك الاستياء العام الذي ساد جميع الأوساط حول الريف. وقد عكست مراسلات مراسلي الحزب الإسبان هذا الاستياء الشعبي، الذي فاقمت من حدته الأخبار الواردة من المغرب والمتعلقة بسقوط أربعين من الضباط[٣١]. أعلن مجلس الحكومة انتهاء الحملة العسكرية بالريف[٣٢]، إلا من بعض العمليات الثانوية الضرورية لدعم التغلغل العسكري، في انتظار ثمار عملية التهدئة السياسية، التي كانت تقودها بالريف. إلا أن مشاركة برنكر في اجتماع مالقة[٣٣]، عصف بأحلام موروا وحكومته، في عدم الاعتماد كليا على العمل العسكري بالريف، إذ وجدوا أنفسهم مجبرين – خلال اجتماع مالقة – على الرضوخ لمطلب برنكر الداعي إلى ضرورة توجيه عملية عسكرية ضد الحسيمة.

وعلى العكس من هذا، خرج اجتماع مالقة، فيما يتعلق بالمنطقة الغربية للريف، بوضع حد للعمليات العسكرية ضد الريسوني. هل يمكن أن نعتبر هذا استهانة من إسبانيا لما أصبحت عليه المقاومة التي يقودها الريسوني بالريف الغربي؟ هل يمكن أن نعتبره إشارة من الصحافة الفرنسية على بداية أفول نجم الريسوني؟ خاصةً إذا علمنا أنه في هذه الأوقات بالذات لم تستطع إسبانيا التخلي بشكل تام عن العمل العسكري بالريف ككل. فقد تأرجح الوزراء، في تناقض مع أنفسهم، بين الظهور بمظهر دعاة السلمية (تزلفا للرأي العام الإسباني، الذي ساءته الخسائر الجسيمة بالريف)، والتشبث باستمرار العمليات العسكرية، رضوخًا لمطالب العسكريين، خارجين بتوليفة قوامها: نهاية الحملات العسكرية الترهيبية، واستمرار العمليات العسكرية ذات الطابع الأمني والدفاعي المحض[٣٤].

ويتبين لنا استهانة الإسبان بقوة الريسوني فيما وجهت إليه من أوامر حتى وهي تمارس ما سمته الصحافة الفرنسية بسياسة العصا والجزرة، التي أضحت العنوان البارز لسياسة إسبانيا بالريف، فقد وجهت إنذارا لكل من الريسوني، وعبد الكريم[٣٥]، داعية الأول إلى إعلان الخضوع، في حين دعت الثاني إلى تسليم الأسرى الإسبان لديه، مهددة إياه في نفس الوقت، إلى أنه إن لم يفعل، فسوف تقوم بتوجيه عملياتها العسكرية ضده،كما قررت فتح قنوات التفاوض (من جديد) مع عبد الكريم من أجل تحرير أسراها، قبل الشروع في توجيه عملياتها العسكرية ضده. توجه القائد العسكري فرنانديز ألميدا (Fernandez Alméida)، نحو الحسيمة حاملا معه إنذارا أخيرا لعبد الكريم، وفدية بقيمة أربعة ملايين بسيطة لإطلاق سراح الأسرى العسكريين والمدنيين، مهددا إياه في الوقت نفسه، في حالة الرفض، بالشروع – مباشرة – في الهجوم البري والبحري عليه.

في الوقت نفسه، وجهت حكومة إسبانيا إنذارا للريسوني، داعية إياه إلى إعلان الخضوع، علما أن برنكر كان قد صرح في اجتماع بيزارا Pizarra المنعقد في ٦ فبراير، بكون الحملة العسكرية بالجهة الغربية، ستتطلب – من الوقت – ثمانية أيام لإجبار الريسوني على الخضوع، إلا أن هذا الأخير لم يكن ينتظر العنف العسكري الإسباني، ليمارس عليه ليعلن خضوعه، بل أسرع إلى إبراز مؤشرات على ذلك، من خلال إقدامه على إطلاق سراح ناظر الحبوس سيدي السلاوي، وكريمة باشا تطوان، والتاجر التطواني سي المفوق(Si-El-Muffak) دون قيد أو شرط. وكان هؤلاء جميعا قد اختطفوا من تطوان – منذ شهر قبل إطلاق سراحهم – من طرف الثائر المعروف بالجهة الغربية من الريف فارتيتي (Fartiti)، الذي سلمهم إلى حميدو سوكان (Hamido Succan) أحد القادة الكبار (ليوتنو) ضمن قوات الريسوني.

لكل ذلك يمكن أن نقول إن إسبانيا كانت على علم بحجم قوة الريسوني، الذي انهار واستجاب للمطالب الإسبانية دون تعنت على غير المعتاد منه، والأنكى من ذلك أنه على الرغم من مؤشرات الخضوع[٣٦]، التي أبداها الريسوني لإسبانيا، فإنها أبدت رغبة شديدة في التخلص منه بشكل نهائي، فعزمت القيادة العسكرية العليا الإسبانية على إبعاد الريسوني إلى حدود منطقة النفوذ الفرنسي[٣٧]، وفي نفس الوقت عبرت، وهي تتخذ هذا القرار، عن تخوفها من سماح فرنسا للريسوني بتجاوز الحدود، واللجوء إلى أراضيها. وقد علقت الصحافة الفرنسية على

تخوفات إسبانيا بالقول: "إن إسبانيا لم تكن على علم بأن الريسوني قد راسل السلطات الفرنسية طالبا منها الحماية، إلا أن الماريشال ليوطي ومعاونيه لم يلقوا إليه بالا، وصموا آذانهم عن دعواته، التي بلغت العشرين دعوة"[٣٨].

وقفت الصحافة الفرنسية كثيرًا عند هذه التخوفات وأرجعتها إلى زيارة مجموعة من الريفيين لباريس[٣٩]، الأمر الذي عدته سلوكًا مستغربًا من دولة طالما استقبلت على أرضيها – خلال الحرب العالمية الأولى – الكثير من أعداء فرنسا، وكان على رأسهم المولى عبد الحفيظ. وأكدت على أنه على الرغم من الحملة الصحفية، التي تقودها الجرائد الإسبانية ضد فرنسا، فإن هذه الأخيرة كانت ولا تزال تنهج سياسة محايدة وقويمة إزاء إسبانيا. وبالفعل فقد حصل ما روجته الصحافة الفرنسية من استشعار إسبانيا ضعف الريسوني، وتراجع قوته بالريف الغربي، بإعلانه الخضوع لإسبانيا وفق جميع الشروط التي فرضتها، وإن اعتمدت في مصادرها على الإشاعات الرائجة بالمنطقة الغربية، التي تكاد ترقى إلى اليقين.

والواقع أن إسبانيا خدعها حدسها فيما يتعلق بالريسوني، حيث أبدى تصلبا في مفاوضاته معها، وأثبت أنه شخصية سياسية بامتياز لها القدرة على استشراف المستقبل السياسي للمنطقة، بناء على قراءته للحالة السياسية التي كانت تعيشها إسبانيا. فقد قدم برنكر، الذي عهد له بمفاوضة الريسوني، استقالته[٤٠]. وهذا ما توقعه الريسوني قبل حدوثه. بل الأكثر من ذلك كان تعثر المفاوضات معه من بين أحد العوامل التي أدت إلى سقوط حكومة مورا. وفي هذا تقول جريدة "لافيجي ماروكين" وهي تعدد مظاهر فشل حكومة مورا في الريف "مماطلة الريسوني ومراوغته، وهو المحاصر من كل الجهات، من طرف قوات الإسبانية، مما جعله قاب قوسين أو أدنى من قبضة الاحتلال، التي كانت لا تحتاج سوى لخطوة واحدة فقط، ليقع في براثنها، لكن سياسة المراوغة والمماطلة والتسويف، التي نهجها، كانت تؤجل تلك الخطوة الأخيرة"[٤١].

ومع سحب برنكر لاستقالته كقائد للقوات الإسبانية بالريف، تحت الضغط الشعبي، وحصوله على التزام من وزير الحربية في الحكومة الجديدة الجنرال أولاكر (Olaguer)، الذي صرح بأنه سيدعم خطة برنكر، ويولي كامل الرعاية لها، على الرغم من اختلاف رؤيتيهما[٤٢]. هنا ستبدأ مرحلة جديدة من مراحل العلاقات بين إسبانيا والريسوني شمال المغرب. مرحلة ستبصم على نهاية المقاوم المغربي، لكن ليس بيد إسبانيا، على أي حال، التي انقلب عليها تحت سحر فتنة استعادة أمجاده القديمة، بعد أن أبدى بعض مؤشرات الخضوع. عزت الصحافة الفرنسية هذا التغير في موقف الريسوني إلى الأحلام التي أضحت تراوده في العودة إلى وضع ما قبل ١٩١٨، الوضع الذي كان فيه الريسوني سيدا مطلقا بالجهة الغربية، في حالة هزيمة إسبانيا واستسلامها للأمر الواقع، وإعلان عجزها عن السيطرة على المنطقة، لذلك كان يميل كل الميل إلى التسويف والمماطلة، وتأجيل الحلول النهائية ما أمكن له ذلك.

خامسًا: انهيار الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية

قبل سقوط الريسوني، بدت الصحافة الفرنسية متعاطفة معه إلى الدرجة التي استهجنت معها طريقة التعامل الإسباني مع سلطان الجبال، كما نعتته، فقد رأت في التفاوض المباشر للجنرال أيثبورو (Aizpuru) معه، حيث عقدا لقاء في حصن سيدي موسى (الإسباني) بنواحي تازورت في ١٩ أكتوبر[٤٣] ١٩٢٣، تناولا فيه مجموعة من القضايا، كان على رأسها مسألة النفوذ والامتيازات المطلقة، التي كان قد حازها، من قبل في عهد الحكومة السابقة، والتي أثارت حينها غضب وسخط الكثير من الأوساط بمدريد. وكان قد تم تجديد التعبير عن هذا الغضب والسخط، من لدن المجلس العسكري، الذي صرح بصدد الريسوني أنه غير معني بالاتفاقات السابقة، التي عقدت معه، وخولته الكثير من الامتيازات.

رأت الصحافة الفرنسية في التعامل الإسباني مع الريسوني بهذه الطريقة خطأً دبلوماسيًا، فاعتبرت جلد الماضي بكل هذه القسوة، والتنصل من اتفاقياته، واعتباره سوادًا مطلقًا، بالعمل غير السياسي، وينم لدى المجلس العسكري عن قصور وضآلة في الحس البرغماتي، الذي يُعد جوهر كل عمل سياسي، خاصة إذا ما تم استحضار الاستقبال الحاشد والحافل بالأنصار، الذي خصصه الريسوني للمندوب السامي الإسباني، كإشارة منه على أنه ليس بالرجل (الضعيف) الذي يقبل بشروط الاحتلال كلها، وبإملاءاته.

على الرغم من مظاهر الود التي رصدتها الصحافة الفرنسية بعد نهاية المفاوضات بين الطرفين، فإنها شككت صراحة في نوايا إسبانيا اتجاه الريسوني، في قراءة منها للواقع الجيوسياسي للمنطقة، فكتبت "لافيجي ماروكين": "على الرغم من هذا الود الظاهر بين الريسوني وإسبانيا، فإن هذه الأخيرة لم تكن لتحجم عن أية فرصة تعرض لها، لتحقيق التوازن داخل النسيج الأهلي، ولم تكن ترضى بالركون لقوة واحدة ووحيدة، ووضع الريف الغربي كله في سلة الريسوني، فقد كانت تتلكأ،

وتناور، وتسوف، في انتظار ما ستتمخض عنه حركة عبد المالك[٤٤]، الذي طالما سعت إلى جعله منافسا للريسوني بالمنطقة، ونقطة ارتكاز لسياسة فرق تسد"[٤٥].

رغم هذا الطعن، من الصحافة الفرنسية، في مصداقية إسبانيا، والتشكيك في التزاماتها، ووعودها اتجاه الريسوني، إلا أن الصحافة الأمريكية رأت في ذلك مخاضًا لميلاد سياسة جديدة عنوانها السعي للانتقال من نظام الحماية، الذي أثبت فشله إلى نظام الصداقة. النظام الجديد، الذي شكل محور العقد الذي تم إبرامه مع الريسوني وكانت إسبانيا تريد تطبيقه كذلك مع محمد بن عبد الكريم الخطابي.

غير أن هذه السياسة التي قادها برنكر بالريف، والتي كانت محط إشادة من لدن الصحافة الفرنسية، واعتبرتها نموذجا للسياسة الناجحة، المستلهمة من النموذج الفرنسي، وهي السياسة التي يمكن أن نطلق عليها: سياسة التهدئة المسلحة[٤٦]، التي كان بإمكانها أن تحرز النجاح لولا تظافر مجموعة من العراقيل التي حدت من امتداداتها، وهي عراقيل كان منشأها السياسة الممارسة داخل إسبانيا، وليست تلك الممارسة بالريف.

سادسًا: تداعيات انهيار الريسوني على الوضع في الريف من خلال الصحافة الفرنسية

كان للصحافة الفرنسية وقفات مع تداعيات انهيار الريسوني على الوضع السياسي بالريف، وقبل أن تخوض في ذلك مهدت له واصفة منحدره نحو مغيبه الأبدي بلغة حزينة مشفقة على نهايته المأساوية: "حوصر الريسوني، الذي طالما نعت بكونه الرجل الذي لا يقهر، داخل قلعته بتازورت بالجبل المقدس، حيث يرقد جثمان مولاي عبد السلام".[٤٧]

وفي مقالات تمتزج وتتقاطع فيها الرؤية الأنتربولوجية والسياسية لهذه النهاية الدرامية، كتبت «L'Echo du Maroc» "لقد سلم الريسوني المريض المتهالك، الذي هده المرض وأضناه، نفسه لقوات عبد الكريم معلنا تبعيته المطلقة لهذا الأخير، مفتديا نفسه بذبح عدد من العجول على شرف قوات عبد الكريم، وواضعًا رهن إشارتها قلعة تازورت بعتادها وعدتها، بما فيها الأسلحة التي تركتها إسبانيا بعد إخلائها للريف الغربي الخاضع لنفوذه، في إطار سياسة الانسحاب، التي نهجها ريفيرا، بشمال المغرب، بعيد انقلابه ...وفي الأخير توج الريسوني سقوطه المدوي بمبايعة عبد الكريم قائدًا أعلى، وتمترسه خلفه في حربه المقدسة على الاحتلال. وعلى إثر ذلك نال الريسوني عفو عبد الكريم وصفحه، شرط عدم مغادرته لقلعته بتازورت".[٤٨]

وفي مقال آخر بسطت الوضع السياسي الناتج عن انهيار الريسوني، وفق قراءة لجريدة "التايمز" البريطانية "كان من نتائج سقوط الريسوني، أن انضم أكثر أتباعه إلى عبد الكريم، بينما هرب بعضهم. وأسفر هذا السقوط كذلك عن أسر شيخ جبال حبيب (Jibal Habib)، أما قايد بني مسوا (Beni Msoua) جلال (Zallal)، فقد هرب لاجئا بالقرب من حدود منطقة طنجة الدولية".[٤٩]

وإذا كانت "التايمز" البريطانية قد رأت في انهيار الريسوني بعثرة لخريطة الولاءات القبلية بالريف[٥٠]، لأنه أصبح من المتوقع وحدة منطقتي الريف الغربية والشرقية، فإن الصحافة الفرنسية، وهي تعرض تحليلها للأوضاع بالريف، وجدت فرصة للتعبير عن مخاوفها من وقوع الريف تحت وصاية قوة ثالثة، فذكرت بالوعد الذي أخذته إسبانيا على نفسها لفرنسا في اتفاقية ١٩١٢، التي أبرمت بين الدولتين، والقاضي بعدم تنازل إسبانيا عن حقوقها بالريف لقوة ثالثة.

وقد جاءت هذه المخاوف نتيجة لانهيار السلطة الظاهرية لدولة الاحتلال بالريف الغربي بانهيار الريسوني الذي شكل الريف الغربي في عهده منطقة خلفية ذات أهمية استراتيجية خاصة لثغر سبتة المحتلة، ومع هذا الانهيار لم يعد أمام إسبان الثغر المذكور سوى التطلع بأبصارهم نحو وجهة جبل طارق، يستمدون العون من الحامية البريطانية هنالك في حربهم الدفاعية، التي كانوا يخوضونها بسبتة ضد الهجومات الريفية. وأمام غياب سيطرة فعلية لإسبانيا على الريف، دعت الصحافة الفرنسية حكومة المتروبول إلى ضرورة التدخل بالمنطقة والحلول محل إسبانيا، وحثت – قبل القيام بذلك – على القيام باستشارة إيطاليا، وابريطانيا التي لن تقبل بسيطرة قوة أخرى، وإن كانت أوروبية صديقة على الساحل الإفريقي المقابل لجبل طارق، إلا بعد حصولها على ضمانات تحفظ حقوقها[٥١].

لم تكتفي الصحافة الفرنسية بتحريض حكومتها على ضم الريف فقط، بل وجهت نقدًا لاذعًا لسياسة إسبانيا بالريف، فقد عابت عليها زئبقيتها بتبرئها من الريسوني المهزوم، وادعائها أنه لم يكن يتصرف إلا بما تقتضيه مصلحته الخاصة[٥٢]، وزعمها أنها لم تعترف ولن تعترف بشرعية أية سلطة كانت بالريف سوى بشرعية سلطة المخزن. كما استهجنت الصحافة الفرنسية هذا الموقف الإسباني من الريسوني الذي زعمت أنه كان يحارب

باسم إسبانيا ولمصلحتها بهدف استنزاف قوى عبد الكريم[٥٣].

والملاحظ أن هذا التعاطف مع الريسوني من لدن الصحافة الفرنسية، ظل قائما حتى بعد أفول نجمه، وفرض الإقامة الإجبارية عليه من طرف منافسه على الريف، وخصمه محمد بن عبد الكريم الخطابي، داخل قلعته **بتازورت**، نلمس ذلك فيما ستخصصه من مراثي حزينة بمناسبة رحيله عن الدنيا إلى الأبد.

سابعًا: مرثية الصحافة الفرنسية الحزينة لرحيل الريسوني

كانت الصحافة الفرنسية كلما تناولت موضوع رحيل الريسوني، الذي وقعت في زلات عدة بشأنه، إذ أعلنت عن رحيله أكثر من مرة خطأ، إلا وتناولته من زاوية تداعياته على الوضع السياسي للإسبان بالمنطقة، "رحل الريسوني تاركًا وراءه تركة ثقيلة، في نظر إسبانيا، ومخلفا مجموعة غير منسجمة من الورثة ممثلين في قادته العسكريين المنقسمين على أنفسهم أشد الانقسام بين مؤيد لإسبانيا تأييدا مطلقا، ومعارض لها أشد المعارضة، معارضة يستحيل معها قيام أي تفاهم بين الطرفين، وكان الخيريرو من أبرز عناصرها وكان قد اكتسب شهرة واسعة بفعل عمليات الغزو والاختطاف، التي نفذها داخل تطوان نفسها، فكان بذلك نموذجا مصغرا لأستاذه الريسوني"[٥٤].

الواقع أن مرد هذا التخبط الذي كانت تقع فيه الصحافة الفرنسية فيما يتعلق برحيل الريسوني، يرجع بالأساس على أنه ظل مادة دسمة يرددها من حين لآخر مراسلو الصحافة الدولية بطنجة. كما شاب هذه القضية الكثير من الالتباس، واعتبر قضية أمن دولة من طرف البعض لتداعياتها على الوضع السياسي والعسكري الإسباني بالريف، وقد وقعت –أي الصحافة الفرنسية- لمرتين اثنين في هذا الخطأ، وكانت تتناول واقعة موته، وتحيطها بالألغاز، ولم تستطع الانفلات من إسار رؤيتها الاستشراقية، بأن جعلت الغلمة والشبق والعشق اليائس، وراء موته مسمما، نتيجة ما كان يعرفه القصر الضاج بالجواري والإماء من صراع ومناكفات على قلب السيد[٥٥].

لقد أخبرت برحيله في المرة الأولى بتاريخ: ١٦ شتنبر[٥٦]١٩١٤، ثم مرة ثانية بتاريخ: ٢٠ دجنبر ١٩٢٣، وكانت في كل مرة تحيط الخبر بالدراسة والتحليل، وكانت قراءاتها تهتم أكثر بما هو سياسي، مادام الأمر يهم ويؤثر على منطقة نفوذ فرنسا بالمغرب، وكانت تتعاطف مع وجوده ليس حبا فيه، ولكن لما يخلقه من توازن في منطقة النفوذ الإسباني. فوجوده كان بمثابة رمانة الميزان بين كفتي قوة محمد بن عبد الكريم الخطابي وإسبانيا "الدولة التي كانت في نظرها لا ترقى إلى مستوى دولة استعمارية"، وهذا ما كان يحفظ مصالحها، فوجود دولة استعمارية ضعيفة على تخومها تنافسها على أرض المغرب، هي مسألة في صالحها، وانشطار المقاومة المغربية بين رأسين، كان أيضا في صالحها. وقد كانت على حق فما إن تمكن محمد بن عبد الكريم الخطابي من إخضاع الريسوني لسلطته، وفرض الإقامة الإجبارية عليه، حتى اختلت موازين القوى، وأصبحت ليس فقط منطقة النفوذ الإسباني مهددة لوحدها، بل كذلك المنطقة الفرنسية، مما سيدفع بالقوتين الاستعماريتين المتنافستين إلى توحيد جهودهما للقضاء عليه.

نقول هذا لنعرف فقط مغزى هذا التعاطف الذي لقيه الريسوني من طرف الصحافة الفرنسية، وجعلها تؤبنه، حين تأكد لها بشكل جازم رحيله، وهو ما أكدته لقرائها. وقد أوردت مقالا رائعا لبول مودينا، في تأبين سلطان الجبال، لم يخلو من براعة أدبية، آسرة، وفاتنة، وحزينة.

نشرت "لادبيش ماروكين" مقالاً في رثاء الريسوني لبول مودينا، الذي أكد فيه، بما لا يدع مجالاً للشك، بكون الريسوني قد لبى داعي ربه، وأن الموت قد غيب قسمات شريف تجري في عروقه دماء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأبد، وصرح الكاتب في أسى أن نقيب الشرفاء قد رحل عن الدنيا، ومعه رحلت المهابة، ورحل الجلال في أبهى صوره البشرية. وختم مودينا مقاله بالإشارة إلى أن الموت قد أنجى سلطان الجبال من مهانة وذل الأسر، الذي فرضه عليه عبد الكريم، وتمنى على الله أن يتلقى الريسوني لقاءً كريمًا يليق بمكانته[٥٧].

خَاتِمَةٌ

إن أقل ما يقال عن الصورة التي رسمتها الصحافة الفرنسية للريسوني، أنها صورة رجل ارتقت توصيفاتها له به إلى مستوى الأسطورة، وقد كان بالفعل كذلك فقد اختلفت، تمامًا كالأساطير، الكتابات والآراء في تفسير مواقفه، لأنه بقدر ما كان مهمومًا بمحاربة الاستعمار، كان كذلك يبحث عن تحقيق مصالحه الذاتية، وبناء مساره السياسي، وفرض نفسه سيدًا مطلقًا على الريف كله، مما جعله يلجأ إلى طلب مساعدة الاحتلال الإسباني من أجل فرض سطوته على قبائل الشمال المغربي، حين كانت تعوزه قدراته الذاتية على تحقيق ذلك، وهو ما لم تكن تفهمه القبائل، أو تستسيغه، مهما بذل من الأعذار، مما فرض عليه التظاهر أمام القبائل بمعاداة الإسبان، في الوقت الذي كان يخدم مشروعهم التوسعي بالشمال، لعلمه أن مستوى إدراكها لن يستوعب أبدا أن الهدف من سياسته ترويض الاستعمار، والتخفيف من بطشه، ليقينه أن لا قبل له، ولا لغيره بالوقوف في وجهه. عمومًا فإن ما يشفع له أنه حين أفل نجمه، فضل الخضوع لغريمه ومنافسه، ابن جلدته، على الارتماء في أحضان المحتل الغازي.

الاحالات المرجعية:

(١) أدى انتحار خليفة السلطان بالشمال إلى إرباك سياسة الإسبان في مرحلة حساسة وانتقالية، وشغلت بال سياسييهم، وعطلت رحلة الجنرال (Aizpuru)، على الرغم من الطابع الصوري لمنصبه، الذي لا يتعدى الواجهة التمثيلية (للسلطان)، فسي المهدي وإن كان صديقا للدولة الحامية، فإنه لم يسجل له يوما أن كان ذا جدوى لدولة الاحتلال، أو قدم لها منفعة أو غوثا في أوقات العسرة إلى الدرجة التي جعلت البعض من الإسبان يتساءل عن جدوى العمل بالاتفاق الفرنسي – الإسباني لسنة ١٩١٢، الذي حدد طريقة تعيين خليفة السلطان. وعلى الرغم من هذه الأصوات المستهينة بالموضوع، فقد كانت إسبانيا حريصة على تعيين أخلص خلصائها في المنصب المذكور، وروجت صحافتها لأسماء مغربية، لتولي منصب خليفة السلطان بمنطقة نفوذها، ورشحت (الجرائد) بقوة سي عبد الرحمان الصديقي، الذي أثنت عليه « A.B.C » كأحد باشوات الشمال، الذي اشتهر بحياديته، فقد كان يقف على مسافة واحدة من السلطان والقوى الغازية، الأمر الذي أثار استغراب جريدة (La Vigie Marocain)، واندهاشها، وتساءلت كيف تثني جريدة « A.B.C » على شخص مثل هذا، وخليفة السلطان يضطلع بدور الوسيط والناطق باسم السلطان مع القوى الخارجية، إلا أن ريب المنون وضعت حدًا لتضارب الصحافة الأجنبية، في جدارة واستحقاق عبد الرحمان الصديقي لهكذا منصب، حين اختطفته بطنجة أياما قلائل بعد ترشيحه، واختارت له مقاما (بين الأموات) غير مقام خليفة السلطان (الدنيوي). ومن الأسماء، التي تم تداولها بشدة، آنذاك، كان اسم إدريس الريفي عامل المخزن بالريف، الذي حظي بدعاية كبيرة من طرف الصحافة الإسبانية.

من المعروف، فإن مراسيم اختيار خليفة السلطان تتم عبر ترشيح اثنين من الأهالي، وتقديم اسميهما إلى السلطان، الذي له الحق في اختيار أحدهما. وتساءلت الجريدة: إن كان مولاي يوسف سيعين أحد الأسماء المرشحة من لدن إسبانيا، دون أن يأخذ منه المواثيق والعهود، خاصة وأنه سيفقد سلطته على الخليفة فور تعيينه، الأمر الذي عانى منه أشد المعاناة زمن الخليفة سي المهدي، الذي تطاول على جميع سلط واختصاصات السلطان، ولم يعد يرجع إليه في أمر من أمور المنطقة الشمالية. رجحت الجريدة لجوء السلطان مولاي يوسف إلى أخذ العهود والضمانات من الخليفة الجديد، تفاديا لتكرار تجربة سي المهدي المريرة. هذا الأخير الذي تولى الخلافة منذ سنة ١٩١٣، وبذلك يكون أول خليفة للسلطان بمنطقة النفوذ الإسباني، ولم تطرح مشكلة الخلافة منذ ذلك التاريخ إلى حين وفاته، انظر:

La Vigie Marocaine, Qui succédera au Khalifat ? Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4587, (Casablanca, dimanche 04 novembre 1923), p, 1.

La Vigie Marocaine, Sous le parasol, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4581, (Casablanca, dimanche 28 octobre 1923), p, 1

(2) **La Vigie Marocaine**, Raissouli est mort. Paris 19 décembre, Le Daily Mail annonce que Raissouli est mort, On pense qu'il a été empoisonné, 16(ème) année – N° 4626, (Casablanca, jeudi 20 décembre 1923), p, 1.

(٣) تحدث والتر هاريس عن تجربة الاعتقال في الفصل الثامن من كتابه "المغرب المختفي"، انظر:

Haris, Walter, **Le Maroc disparu**, Edition Dar Al Aman 2011, Rabat, de 197 à 267.

(٤) ألهمت هذه الحادثة السينما الأمريكية، فأنتجت فيلما سنة ١٩٧٥ تحت عنوان: العاصفة والأسد، وكان من إخراج جون ميليوس وبطولة الممثل الشهير شون كونري.

(5) **La Vigie Marocaine**, G.L, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4629, (Casablanca, dimanche 23 décembre 1923), p, 1.

(6) Ibidem.

(7) **La Vigie Marocaine**, Raissouli est mort. Paris 19 décembre, Le Daily Mail annonce que Raissouli est mort, On pense qu'il a été empoisonné,…op, cit, p, 1.

(8) **La Dépêche Marocaine**, Raïssouli deviendrait Khalifa de la zône espagnole, 8(ème) année – N° 2285, (Tanger, vendredi 5 juillet 1912), p, 2.

(9) **La Dépêche Marocaine**, Dans la Zone Espagnole, 8(ème) année – N° 2308, (Tanger, dimanche 28 juillet 1912), p, 1.

(10) **La Dépêche Marocaine**, L'occupation d'Arzila, Dans la zone espagnole, 8(ème) année – N° 2332, (Tanger, mercredi 21 août 1912), p, 1.

(11) **La Dépêche Marocaine**, L'occupation d'Arzila, 8(ème) année – N° 2333, (Tanger, jeudi 22 août 1912), p, 1.

(12) Ibidem.

(١٣) لم يكن اضطراب الأوضاع وعدم استقرارها وقفا على الضفة الجنوبية للمتوسط بل طالت كذلك ضفته الشمالية، التي بلغت مستوى عاليا من الاحتراب السياسي، انظر في هذا بالنسبة للضفة الجنوبية:

La Dépêche Marocaine, Les Tribus se battent entre elles à Alhucemas, Dans le Rif, 8(ème) année – N° 2392, (Tanger, dimanche 20 octobre 1912), p, 1.

بالنسبة للضفة الشمالية:

La Dépêche Marocaine, Le premier Ministre est tué d'un coup de revolver, Assassinat de M. Canalejas, 8(ème) année – N° 2415, (Tanger, mercredi 13 novembre 1912), p, 1.

(14) **La Dépêche Marocaine**, Billet d'Arzila (de notre correspondant). Arzila, 30 juillet, 8(ème) année – N° 2312. (Tanger, jeudi 1(er) août 1912), p, 2.

(15) **La Dépêche Marocaine**, Le Chérif battu compte 30 hommes tués, Ahl Sherif contre Raissouli, El – Ksar, le 24 juillet, 8(ème) année – N° 2307, (Tanger, samedi 27 juillet 1912), p, 1.

(16) **La Dépêche Marocaine**, Dans la zone espagnole, 8(ème) année – N° 2308, (Tanger, dimanche 28 juillet 1912), p, 1.

(17) **La Dépêche Marocaine**, Les Troubles autour d'Arzila,.Dans la zone espagnole, 8(ème) année – N° 2327, (Tanger, vendredi 16 août 1912), p,1.

(18) **La Dépêche Marocaine**, Pour Arzila, (De notre correspondant particulier). Larache, 17 août, 8(ème) année – N° 2330, (Tanger, lundi 19 août 1912), p, 2.

(19) **La Dépêche Marocaine**, L'occupation d'Arzila, 8(ème) année – N° 2338, (Tanger, mardi 27 août 1912), p, 1.

(٢٠) علقت على ذلك حرفيًا بالقول:

« ….**et que cette affaire présente pour nous-mêmes, par ses répercussions fatales, une grande importances**… » Voir : G (Louis), **La Vigie Marocain,** En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919), p, 1.

(21) G (Louis), **La Vigie Marocaine**, Le mouvement du Général Sylvestre. En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919), p, 1.

(22) G (Louis), **La Vigie Marocaine**, Occupation deux objectifs, En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919).p.1

(23) **La Vigie Marocaine**, G (Louis), Le travail d'arrière de Raissouli, En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195. (Casablanca, samedi 4 octobre 1919).p.1.

(24) **La Vigie Marocaine**, Révolte militaire en zone espagnole, Au Maroc, 12(ème) année – N° 3193, (Casablanca, jeudi 2 octobre 1919), p, 1.

(25) **La Vigie Marocaine**, G (Louis), Deux postes espagnols enlevés. En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919), p, 1

(26) **La Vigie Marocaine**, Au Maroc. Espagne, 12(ème) année – N° 3204, (Casablanca, lundi 13 octobre 1919), p, 1.

(27) **L'Echo du Maroc**, La retrai de Raïssouli, 7(ème) année – N° 2052, (Rabat, samedi 11 octobre 1919), p, 1

(28) **La vigie Marocaine**, Raïssouli et les espagnols, Le Maroc militaire, 13 (ème) année – N° 3352, (Casablanca, vendredi 19 mars 1920), p, 1.

(29) **La Vigie Marocaine**, Le Cabinet Maura est divisé sur la question marocaine, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3939, (Casablanca, vendredi 3 février 1922), p, ٢.

(٣٠) كانت طبيعة الخلاف بين مورا ووزرائه ترجع إلى طبيعة الأطروحة التي يتبناها (مورا)، والتي تجعله بمنأى عن أنصار الحل العسكري المطلق، إذ كان دوما من دعاة عدم الاستكانة إلى القوة العسكرية وحدها، التي لا يجب أن تعتمد إلا في أدنى مستوياتها، كما اتكأت أطروحته على فكرة تتلخص في فرض السيطرة على السواحل، واعتماد التغلغل السياسي البطيء في المناطق الداخلية. وكان السبب الثاوي وراء تبني مورا لهكذا أطروحة، يتمثل في كون القضية المغربية –في نظره- لا ترقى إلى مستوى قضية احتلال أو حتى حماية فعلية، بل هي مجرد قضية حدود ليس إلا.

(31) **La Vigie Marocaine**, On retrouve quarante officiers, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3939, (Casablanca, vendredi 3 février 1922).p.1.

(32) **La Vigie Marocaine**, L'Espagne décide l'arrêt des opérations, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3942, (Casablanca, lundi 6 février 1922), p, 1.

(33) La Campagne continue… . L'Espagne au Maroc, **La Vigie Marocaine**, 15(ème) année – N° 3945, (Casablanca, jeudi 9 février 1922), p, 1.

(34) **La Vigie Marocaine**, La Campagne finie tout en continuant, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3947, (Casablanca, samedi 11 février 1922), p, 1.

(35) **La Vigie Marocaine**, Un double ultimatum à Raïssouli et Abd –El – Krim, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3948, (Casablanca, mercredi 15 février 1922), p, 1.

(٣٦) كان الوحيد في الحكومة الإسبانية، الذي شكك في نوايا الريسوني، وخرج عن التوجه الرسمي فيما يتعلق بالريسوني، رئيسها مورا، حيث صرح بهذا الصدد:

« Avec Raïssouli on ne peut jamais être sûr, dit-il ». Voir: **La Vigie Marocaine**, G.L, Dans le Riff, 15(ème) année – N° 3979, (Casablanca, mardi 21 mars 1922).p,1.

(37) **La Vigie Marocaine**, La France Sait rester neutre, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3949, (Casablanca, jeudi 16 février 1922), p.1.

(38) Ibidem

(٣٩) أشارت جريدة (La Vigie Marocaine) إلى حديث الصحافة الفرنسية عن زيارة ثلاث شخصيات ريفية لباريس، كان من بينهم ابن أخ محمد بن عبد الكريم الخطابي. وقد اعتبرت الصحافة الفرنسية، زيارة هؤلاء لباريس، لا تكتسي طابعا سياسيا، ولا علاقة للسلطة الفرنسية بها، انظر:

Des Riffains à Paris. L'Espagne au Maroc, **La Vigie Marocaine**, 15(ème) année – N° 3942, (Casablanca, lundi 6 février 1922), p, 1.

(40) **La Vigie Marocaine**, Un départ gros de conséquences, La démission du général Bernguer, 15(ème) année – N° 3972, (Casablanca, dimanche 12 mars 1922), p, 1.

(41) **La Vigie Marocaine**, G, L, Deux démissions, Choses du Riff, 15(ème) année – N° 3973, (Casablanca, lundi 13 mars 1922), p, 1.

(42) **La Vigie Marocaine**, G.L, Reprise de démission et reprise d'offensive, 15(ème) année – N° 3979, (Casablanca, dimanche 19 mars 1922), p, 1.

(43) **La Vigie Marocaine**, Une entrevue avec Raissouli, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4575, (Casablanca, dimanche 21 octobre 1923), p,1.

(٤٤) يجعل ميشو بيلير عبد المالك، الذي ولد بدمشق، نجلا للأمير عبد القادر الجزائري في حين يراه جرمان عياش حفيدا له، أما جريدة (Le Progrès Marocain) فتزعم كونه ابن أخ عبد القادر. بدأ حياته العملية داخل الجيش العثماني، وترقى فيه إلى درجة ضابط، وعند نزوله بالجزائر انخرط في جيش بوحمارة. ولما ساءت العلاقة بينهما التحق بالمخزن العزيزي في عز صراعه مع حركة عبد الحفيظ المعارضة له، ومع هزيمة المولى عبد العزيز ألقى عليه المولى عبد الحفيظ القبض، إلا نه سرعان ما تم إطلاق سراحه بفضل الوساطات، التي قامت بها المفوضية الفرنسية بالمغرب، بعدها عين مفتشا لطابور البوليس بطنجة وفق قرارات الجزيرة الخضراء. ومع اندلاع الحرب الأوروبية ١٩١٤ ودخول تركيا إلى جانب ألمانيا في نونبر من نفس السنة، اختار عبد المالك معسكره الذي أملته عليه قناعاته الدينية، التي كان يرى وفقها أن الإسلام أمة واحدة، فتخلى عن فرنسا التي كانت تؤمن له معاشه الدنيوي. ومع نهاية الحرب لجأ إلى منطقة النفوذ الإسباني ليستقر بتطوان، ومنها انتقل مع جيشه إلى غياثة وذلك بعد محاولة فاشلة للاستقرار داخل غمارة، ومن غياثة توجه صوب سوق الأحد بكزناية، وانتهى به المطاف في الأخير بكيفان على بعد عشرين كيلو متر من مركز بومهيريس المشيد من طرف الإقامة العامة لمنع القبائل المحاذية للريف من التسلل عبر ممر تازة إلى منطقة النفوذ الفرنسي، انظر:

- **Le Progrès Marocain**, Situation Politique et Militaire du Maroc, Région Fez, 5(ème) année – N° 910, (Casablanca, mardi 7 mars 1916), p, 2.

- Rivet (Daniel), **Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc** 1912 – 1925 (tome 3), Editions l'Harmattan, Paris, p, 108.

(45) **La Vigie Marocaine**, La harka d'Abd – El – Malek. Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4575, (Casablanca, dimanche 21 octobre 1923), p, 1.

(46) «La politique de pacifisme armé» Ibid.

(47) **L'Echo du Maroc**, La capitulation du Raissouli, Raissouli au pouvoir d'Abd – el – Karim, Devant la carence de l'Espagne, 11(ème) année – N° 3761, (Rabat, samedi 31 janvier 1925), p, 1.

(48) **L'Echo du Maroc**, Raissouli aura la vie sauve, La carence de l'Espagne au Maroc, 11(ème) année – N° 3762. (Rabat, dimanche 1(er) janvier 1925), p, 1.

(49) Une version du «times» ce qu'on soit à Tanger. Dans le Riff. **La Vigie Marocaine**. 16(ème) année – N° 4976. (Casablanca, samedi 31 janvier 1925).p.1.

(٥٠) تعني بذلك بعثرة خريطة الولاء بين إسبانيا وخصومها.

(51) **L'Echo du Maroc**, Les conséquences de l'événement, Devant la carence de l'Espagne, 11(ème) année – N° 376٢. (Rabat, dimanche 1(er) janvier 1925), p, 1.

(52) **L'Echo du Maroc**, L'Espagne ne connait pas Raissouli, La carence Espagnole au Maroc, 11(ème) année – N° 376٢, (Rabat, dimanche 1(er) janvier 1925), p, 1.

(53) **La Vigie Marocaine**, Madrid signale que son allié Raissouli aurait été fait prisonnier par les gens d'Abd-el-Krim, Dans le Riff, 16(ème) année – N° 4975, (Casablanca, 30 janvier 1925), p, 1.

(54) **La Vigie Marocaine**, G.L, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4629, (Casablanca, dimanche 23 décembre 1923), p, 1.

(55) **La Vigie Marocaine**, Cherchez la femme. Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4587, (Casablanca, dimanche 4 novembre 1923), p, 1.

(٥٦) **La Vigie Marocaine**, Zone Espagnole. Mort de Raissouli, 7(ème) année – N° 1364, (Casablanca, mercredi 16 septembre 1914), p, 1.

(57) **La Dépêche Marocaine**, Paul Modena, Le sultan des montagnes, 20(ème) année – N° 7306, (Tanger, vendredi 24 avril 1925), p, 1